المبحث الثالث

جمالية الطبيعة ونشوة الخمر

انتشر شعر الخمرة في الأندلس كانتشار الخمرة فيها، و عرف الأندلسيون أصنافًا وأسماءً كثيرة من الخمر ذكروها في أشعارهم مثل القهوة والنبيذ والمدام والراح والحمراء والصفراء...[1].

والتفنن في عقد مجالس الشراب في أحضان الطبيعة سمة بارزة من سمات المجتمع الأندلسي، ففي رياضها ومتنزهاتها وحتى في زوارقها التي كانت تتهادى في أنهارها تعقد مجالس شرابها، مازجين بين طبيعتها وإحساس الشارب المنتشي الذي قد أذهب عقله الجمال والخمرة، مما جعل ألفاظ الطبيعة والخمر تتمازج وتتلازم في بناء النصوص الشعرية وفكرها وغرضها الذي أشبه ما يكون بالواحد (الطبيعة والخمرة).

وهذا الجمال (الطبيعة) محفز ومحرك لتعاطي الخمر، لذا وجدنا التداخل والاتصال بينهما، فالطبيعة مكملة لمجلس الشرب ومما يزيد من دواعي السرور والطرب، فالجمال المبثوث حولهم من شدوِ طيرٍ وهطول مطرٍ وانسيابِ زورقٍ في نهر... هي التي تدعوهم لمنادمة الكأس وقول الشعر في ذلك.

ويعلل الدكتور شوقي ضيف إقبال الأندلسي على الخمرة بقوله: «إنما كان بسبب مزاجهم الحاد العنيف الذي ولدته فيهم حربهم الدائمة لنصارى الشمال، إذ تقوم حياة المحارب دائمًا على الحدة والعنف والإقبال على فنون المتاع»[2].

وأيده بهذا باحث آخر، إذ جعل من خطر الأعداء والبعد عن مركز الإسلام السبب والعامل النفسي في كلف الأندلسيين بالشراب[3]. ونرى أنّ العامل النفسي الذي أشير إليه لم يكن السبب الوحيد في شرب الخمرة، فالحرب وحياة القتال لا يدعوان للشرب والسكر، بل يعيدان إلى الإنسان رشده وصوابه ويقويان صلته بدينه وخالقه الذي ينجيه من كل

(١) ينظر: التجديد في الأدب الأندلسي: ٤٩.
(٢) تاريخ الأدب العربي (عصر الدول والإمارات، الأندلس): ٢٩٣.
(٣) ينظر: التصوير الفني للحياة الاجتماعية في الشعر الأندلسي: ٢٨١.

كرب. والمجتمع الأندلسي مجتمع مسلم يعرف دينه ويعرف الحدود، لكن هذا لم يمنع من شربها لأن الإنسان ضعيف أمام الشهوات ومغرياتها.

والشعراء الأندلسيون «ينشدون الشرب لذاته بحثًا عن مزيد من الكيف والطرب واستغراقًا في اللهو اللذيذ دون أن يجهدوا أنفسهم في البحث عن مبرر أو دافع لقيامهم بمثل تلك الأعمال التي تعد عيبًا وحرامًا، فإذا حاول أحدهم أن يسوغ شربها بسبب فلا يعدو ذلك السبب أن يكون صرفَ الهموم وقتل الأحزان، أو تقلب الزمن ومكر الأيام، من غير إسراف في تفلسف أو تعمق وراء تلك الدوافع والأسباب»[1]؛ لأنّ اقتناص اللذة والتمتع بالمنظر الجميل يدعو إلى سرعة وبديهة في القول دون كدٍّ فكرٍ أو تعمق.

وكان الأندلسيون يعقدون مجالس الأنس والسمر وكانت غالبًا ما تستمر طوال الليل، أو يعقدونها في الصباح وتستمر طوال النهار، وكلاهما يشترك في تكوين قيمة جمالية بعينها، ثم ينفرد كل منهما بعد ذلك بأمور، فهما يشتركان في وصف الخمرة وجمال السقاة وأدواتها من كؤوس وأباريق، ثم تنفرد مجالس الليل بذكر جمال السماء من كواكب ونجوم، بضيائها وتلألؤها. وأما مجالس النهار فتنفرد بوصف جمال الأرض وطبيعتها، ممثلة في رياضها وأزهارها وأنهارها وجداولها وغير ذلك من مباهج الأرض التي تقع تحت أبصارهم، منفعلين معها ومنتشين بشرب الخمرة في ظلالها[2].

والشعر الذي تغنّى فيه الأندلسي بجمال الطبيعة الممزوج بنشوة الخمر قد عُرف في مجالس الملوك والأمراء المنعقد في قصورهم وحدائقهم، أو في مجالس العامة التي ربما تكون «أكثر حريةً وانطلاقًا»[3]، فكانت تُعقد في الرياض وبين الأزهار... وهذه المجالس قد كوّنت القيمة الجمالية التي أعطت من خلال انعقادها الدافع والمحفز لقول الشعر الذي انسجم وتمازج فيه جمال الطبيعة والإحساس بالنشوة من أثر الخمر.

وهناك إشارات دلت على واقع أهل الأندلس في إسرافهم في شرب الخمرة وكثرتها، وذلك من خلال ما ذكره ابن الأبار عن الحَكَم المستنصر الذي «رامَ قطع الخمر من الأندلس، فأمر بإراقتها وتشدد في ذلك، وشاور في استئصال شجرة العنب من جميع

(١) الشعر في عهد المرابطين والموحدين بالأندلس: ٢٠٢.
(٢) ينظر: الأدب العربي في الأندلس، د. عبد العزيز عتيق: ٣٠٨.
(٣) م. ن: ٣٠٨.

أعماله، فقيل إنهم يعملونها من التين وغيره، فتوقف عن ذلك»[1]. وهذا دليل على كثرة الخمر وشاربيها، ومن هنا وجدنا الشعر الخمري من الفنون التي ذاعت لدى شعراء الأندلس، مخالفين في ذلك التحريم الديني. والخمرة التي شربها الأندلسي لم يكن كله من العنب كما مر[2]. لذا كان من الصعب على الحاكم أن يلغي شربها ومنع صنعها وهي تستخرج من صنوف مختلفة من الثمار، لكن هذا الامتناع مردّه إلى القناعة والانصياع لأوامر الشرع كما حدث في عهد الرسول ﷺ.

وهذا التشدد من الخمر وشربها له صدى عند كثير من شعراء الأندلس، فهذا الرمادي يقول:

بِخَطـبِ الشَّـارِبينَ يَضـيقُ صَـدري ... وَتُرمِضُـني بَلِيَّـتُهُم لَعَمـري
وَهَـل هُـم غَيـرُ عُشَّـاقٍ أُصـيبوا ... بِفَقـدِ حَبائِـبٍ وَمُنـوا بِهَجـرِ
أَعُشَّـاقَ المُدامَـةِ إِن جَـزِعتُم ... لِفُرقَتِهـا فَلَـيسَ مَكـانَ صَـبرِ
سَـعى طُلابُكـمُ حَتّـى أُريقَـت ... دِمـاء فَـوقَ وَجـهِ الأَرضِ تَجـري
تَضَـوَّعَ عَرفُهـا شَـرقًا وَغَربًـا ... وَطبَّـقَ أُفـقَ قُرطُبَـةٍ بعطـرِ

ومنها:

نواقِعُهـا مِـن أجـلِ النّهـي سـرًّا ... وَكَـم نهـيٍ نواقِعُـهُ بِجَهـرِ[3]

إنّ الشاعر نقل في شعره مشاعر الغضب من الموقف الذي اتخذ ضد شرب الخمرة، فالبلية قد حاقت بالشاربين الذين لولا عشقهم وفقدهم الأحباب ما لجأوا إليها، فحق لهؤلاء الجزع لأنهم قد فقدوا معشوقتهم ومبددة همومهم الخمر، والشاعر يجعل من الخمر المراق دمًا عزيزًا جرت مسفوحة على وجه الأرض، ناشرةً عطرًا فواحًا في كل اتجاه. ويختم بموقف المصرّ الثابت الذي لا يترك ما هو عليه، سوى تغير في عملية الشرب وإعلانه، فهم سوف يتعاطونها سرًّا ما دام الجهر غير ممكن.

ونعثر على موقف آخر من عملية منع شرب الخمرة، وهذا الموقف يعبر عنه ابن زيدون وهو الذي عُرف بعشقه لهذه المجالس وما فيها، كما في قوله:

أبـاحَ حِمـى الخَمـرِ الخَبيئَـةِ حائِطَـا ... حِمـى الـدينِ مِـن أن يُستَباحَ لَـهُ حَـدُّ

(١) الحلة السيراء: ٢٠٣/١.
(٢) ينظر: الشعر الأندلسي بحث في تطوره وخصائصه: ٨٨.
(٣) شعر الرمادي: ٧٣-٧٥. تضوّع: أي حرّكه وراعه، وقيل: حرّكه وهيّجه. ينظر: لسان العرب: مادة (ضوع).

فَطَـــوَّقَ بِاستِئصـــالِها المِصـــرَ مِنَّـــةً ... يَكـادُ يُـؤَدّي شُـكرَها الحَجَـرُ الصَـلدُ
هِـيَ الـرِّجسُ إِن يُذهِبـهُ عَنـهُ فَمُحسِـنٌ ... شَـهيرُ الأَيـادي مـا لِآلائِـهِ جَحـدُ
مِظَنَّـــــةُ آثـــــامٍ وَأُمُّ كَبـــــائِرٍ ... يُقَصِّـرُ عَـن أَدنـى مَعايِبِهـا العَـدُّ[1]

والقصيدة في مدح ابن جهور، والشاعر ربما لم يصدر عن قناعة شخصية كاملة وتدين، لما عُرف عنه من الشرب ومجالس اللهو، فهو يجاري السلطة في موقفها من إراقة الخمر واستئصالها.

والإنسان ابن بيئته التي يعيش فيها وهو من العناصر الذي يؤثر فيها، لذلك وجدنا الأندلسي يتأثر ويؤثر بما حوله، والطبيعة هي التي تربي ذوقه وتغذي خياله لكتابة أشعاره، فالإنسان الأندلسي استعمل «سياستين في صراعه الدائم مع الطبيعة: انسجم معها، أو بالأحرى سايرها لكي يتمكن من التعرف إلى خصالها إذا صح التعبير، وقاومها عن طريق تحديه لها لإخضاعها لمشيئته في معظم مناحيها»[2].

والشاعر الأندلسي نراه منسجمًا مفتونًا بجمال الطبيعة، فهم يرون الجمال في الصمت والتفكير والهدوء، ويرونه في شروق الشمس وغروبها وفي أحضان الطبيعة النابضة بالحياة. فالشعراء يلجأون إلى الطبيعة يناجون مفاتنها ويتعبدون في محرابها ويستلهمون منها العناصر التي تتصل بالجمال، فأرواحهم انتشت بخمرها وملئت إحساسًا بفتنة الليالي الصافية والنجوم الزاهرة وبجمال الإصباح الرقيق، والفجر الوليد والنسيم وقطرات الندى، فهو الجمال الدائم المستمر المتجدد، وهو جمال معنوي محسوس تتجاوب أنفسهم معها فينطقهم بالشعر، فهو لهم ملاذ من ضجة الحياة وهمومها، ومفجرًا في قلوبهم ينابيع الأنس والبهجة الممزوج بخمر مستخرج من الطبيعة، وكأن الشمس تشرق لتحييه ويلقي إليه الزهر والجدول بأحاسيس الطمأنينة والسلام وصفاء الذهن. إنّ الذات في الطبيعة مازجت الخمرة فأثرت فيها وكونت مشاعره ومفهومه تجاه الحياة.

(١) ديوان ابن زيدون: ٣٤.
(٢) الإنسان الأندلسي: ٢٩.

وشرب الخمرة من العادات الاجتماعية السائدة في المجتمع الأندلسي، وقلما نجد شاعرًا أو أديبًا لم يتغنَّ بذكر الخمرة وأدواتها وكل ما يتعلق بها، فهذا أبو عبد الله بن مسلم الداني (ت ق٥هـ)[١] ينهض صباحًا ويقول شعرًا يطلب فيه الكأس:

أمـــا تـــرى الصـــبح أقبَـــلْ ... فالكـــأسُ لِـــمْ لا تُعَجَّـــلْ
هـــات المـــدامَ دِراكًـــا ... فـــإنني لسْـــتُ أُمْهَـــلْ
مـــا العـــيش إلا مُـــدَامٌ ... ومَنظَـــرٌ ومُقَبَّـــلْ
وهاكهـــا طـــوعَ ملكـــي ... فكـــلَّ مـــا شـــئت أفْعَـــلْ[٢]

فهو يريد أن يغتنم الفرصة ببزوغ الفجر، ويحاول أن يجد اللذة منذ صباحه ولا يترك مجالاً لنفسه كي تصحو من سكرها، وهذه الكأس الصباحية لها «مذاق يفضل البقية كلها»[٣]، وهي التي جعلت المعتضد يقول فيها:

اشـــربْ علـــى وجـــه الصـــباح ... وانظـــرْ إلـــى نـــورِ الأقـــاح
واعلـــمْ بأنّـــكَ جاهـــلٌ ... مـــا لـــم تقـــلْ بالاصـــطباح
فالـــدهرُ شـــيءٌ بـــاردٌ ... مـــا لـــم تســـخنه بـــراح[٤]

فهو يعد من لا يشربها عند الصباح جاهلاً لا يفهم شيئًا من الحياة ـــ حياة الشرب واللهو ـــ لأن المزاج يكون في هذا الوقت صافيًا لم يكدره شيء، لهذا طلب الشرب والنشوة يكون فيه لذة وحرارة لجسده.

ويقول في أخرى:

شَـــربنا وجفـــنُ الليـــل يَغســـلُ كُحلَـــهُ ... بمـــاءِ صـــباحٍ والنســـيْمُ رقيـــقُ
معَّتقـــة صـــفراءَ أمّـــا بخارُهـــا ... فضـــخْم وأمـــا جســـمُها فـــدقيقُ[٥]

(١) الوزير الكاتب أبو عبد الله محمد بن مسلم الداني، آية زمانه في الفطنة ونظم الدراري، أورد له ابن بسام رسائل عدة. ينظر: الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة: ق٣/٥/٣٢٠، والمغرب في حلى المغرب: ٤٠٥/٢.
(٢) المغرب في حلى المغرب: ٤٠٥/٢.
(٣) الشعر الأندلسي في عصر الطوائف: ٣٢٩.
(٤) ديوان المعتضد بن عباد (بحث): ١١٥.
(٥) ديوان المعتضد بن عباد (بحث): ١١٦.

إنّ الشاعر يفتخر بتواصل الشرب والسهر في طلب اللذة حتى بدا الصباح وهبوب نسيمه معللاً فعله بسحر الخمر التي هي معتقة في دنان، مزدانة بلون الذهب صفاءً وجمالاً.

وعلى هذا الغرار يقول ابن عمار:

أدِرِ الزَّجاجَةَ فالنّسيم قد انبرَى ... والنجمُ قد صَرف العنَان عن السُّرَى
والصبحُ قد أهدَى لنا كافورَه ... لما استردَّ الليلُ منا العَنبرَا
والرَّوْضُ كالحَسْنَا كَساهُ زَهْرُه ... وَشْيًا وقلّدهُ نَداهُ جَوهَرا
أو كالغَلامِ زَها بوَرْدِ رياضِه ... خَجَلاً وتاهَ بآسِهِنّ مُعذَّرا
روضٌ كأنّ النَّهر فيه مِعصمٌ ... صَافٍ أطلَّ على رِدَاءٍ أخضَرا[1]

والشاعر يقدم لوحة فنية للطبيعة الممزوجة بالخمر، إذ تحولت الدنيا والطبيعة إلى محفلٍ راقص يشد كل من رآه حتى النجم كأنما ثبت في مكانه فهو لا ينصرف. وقد أهدى لهم الصباح ضياءه المشرق وكافوره بعد أن استرد الليل منهم العذبر (السواد)، والروض فرِحٌ فهو كالحسناء المكسوة بحليها من زهر، ومقلدة جوهرًا من ندى، وكأنّ النهر الذي يجري فيه معصم صافٍ متلألئ بميا هه يشرق على بساطٍ أو رداءٍ أخضر من كثرة الشجر، وهو في مثل هذا المكان الجميل يحاول تكوين قيمة جمالية من خلال شرب الخمر، لأنّ فيه سعادة له كما الأرض من حوله سعيدة بكل هذا التزين والتجمل.

ويقول في أخرى:

الكأسُ ظاميةٌ إلى يُمناكا ... والروضُ مرتاحٌ إلى لُقياكا
والدهرُ جارٍ في عنانِكَ لم تقلْ ... هاتِ المنى إلا أجابَ بهاكا
فأدرر بآفاقِ السرورِ كواكبًا ... تَخِذَتْ أكفَّ سُقاتِها أفلاكا
راحًا أذاهب النسيم حسبتها ... مسروقةَ الأنفاسِ من ريّاكا
في مجلسٍ بَسط الربيعُ بساطَهُ ... زهرًا ورقرقه عليك أراكا
سقط الندى فيه سقوطَ نَداكما ... وجلت عليه الشمس مثل سناكا
روضٌ تفتَّحَ زهرُهُ فكأنّهُ ... مقلُ العذارى حدّقت لِتراكا
يسري على ريحانهِ نفَسُ الصبا ... سحرًا فيوهم أنه ذكراكا[2]

(١) محمد بن عمار الأندلسي: ١٨٩.
(٢) محمد بن عمار الأندلسي: ٢٠١-٢٠٢.

إنّ شرب الخمرة في مجلسٍ قد كساه الربيع بأجمل الأزهار ليوحي للشاعر بقيم جمالية ممزوجة بنشوة وسرور بقدوم هذا الربيع. والشاعر وظف هذا الأمر في خدمة غرضه (المدح). وبدأ بمقدمة منطقية إذ مزج فيها بين الخمر والطبيعة، فألفاظ الطبيعة من (الروض، كوكبًا، النسيم، الربيع...) كلها تصب في تكوين الصورة المثال لهذا المجلس، إذ جعل للربيع بساطًا ومجلسًا ولكن الحضور كانوا من الزهور المتلألئة والأشجار تلمع فوقهم، وهنا الشاعر يستخدم التورية؛ لأنّ المقصود هو (المعتضد) ممدوحه، فقد كان في مجلسه وحوله الزهور تتلألأ وهم ضيوفه، وقد اختار الشاعر فصل الربيع ليجمع بين جمال الطبيعة والوقت والمُلك.

إذن، كان للخمرة طقوس خاصة بها، فغالبًا ما تشرب قبيل الشروق مع ظهور نجمة الصباح في جمعٍ من الندامى وبين جمال مبثوث حولهم. وهذا الأمر يجعلنا نربط بين الخمرة والصباح، ومن ثَمّ أصبح شرب الخمرة من طقوس الاستيقاظ عندهم، وسبب اختيار الشعراء هذا الوقت للشرب لتكون حاضرة وشاهدة عليهم في نشوتهم وسرورهم الذي يعلنونه أمام عناصر الطبيعة التي تشاركهم هذه النشوة، لذا كان شعرهم ينطق بما في أنفسهم من أثرٍ لجمال وحب الطبيعة التي وهبها الله لهم.

فهذا أبو إسحاق بن خيرة الصباغ (ت ق٥ هـ)[1] يرسم لنا ليلة سكر، مشركًا معه عناصر الطبيعة من ليل ونجم، يقول في ذلك الرسم:

رُبَّ ليلٍ طالَ لا صبحَ لهُ ... ذي نجومٍ أقسمتْ أن لا تغورْ
قد هتكنا جُنْحَهُ مِن فلقٍ ... من خمورٍ ووجوهٍ كالبدورْ
إذْ بدتْ تشبهها في كأسِها ... نارُ إبراهيمَ في بردٍ ونورْ
صرعتْنا إذ علوْنا ظهرَها ... في ميادينِ التصابي والسرورْ
وكأنّا حين قُمْنا معشرٌ ... نُشِروا بعد مماتٍ من قبورْ[2]

إنّ الاستيقاظ بعد سهرة شراب امتدت الليل كله يجعل من صاحبه في حالة من الفوضى، أي يكون كمن بُعث من قبره وفي فمه طعم الرماد والتراب، فالشاعر أراد تصوير حالة الاستيقاظ من نشوة الخمر والحالة التي يكون عليها، فهو كالميت الذي قد

(١) إبراهيم بن خيرة، أبو إسحاق، ويعرف بابن الصبّاغ، شاعر من شعراء إشبيلية. ينظر: جذوة المقتبس: ٢٣٩/١، وبغية الملتمس: ٢٦٥/١، ونفح الطيب: ٤٨٥/٣.
(٢) نفح الطيب: ٤٨٥/٣.

دُفن تحت التراب، فالشارب مدفون تحت تأثير الخمرة، والشاعر يترقب نجوم السماء التي قد سكنت في مكانها دلالة على طول الليل وصمته، ودلالة على مدى التهتك الذي يُحدثه الشاعر مع رفاقه وهم في مثل هذا الجو الصامت والساكن. فجمال الليل قد مد الشاعر بمشاعر النشوة فهو يحاول أن يغير من هذا السكون بنشوة خمره وتأثير ذلك فيه، ويقول في أخرى:

يـــــومٌ كـــــأنّ ســـــحابَهُ ... لبســـتْ عِمـــامي المصـــامتْ
حُجبـــتْ بـــه شـــمسُ الضـــحى ... بمثـــالِ أجنحـــةِ الفَوَاخِـــتْ
فالغيـــــثُ يبكـــــي فَقْـــــدَها ... والبـــرقُ يضـــحكُ مثـــلَ شـــامِتْ
والرعـــــدُ يخطُـــــب مُفصِـــــحًا ... والجـــوُّ كـــالمحزونِ ســـاكِتْ
والـــــروضُ يســـــقيهِ الحيـــــا ... والنَّـــورُ ينظـــرُ مثـــلَ باهِـــتْ
فاشـــــربْ ولَـــــذَّ بجنّـــــةٍ ... واطـــرَبْ فـــإنّ العمـــرَ فائِـــتْ(١)

فالشاعر يرسم جمال الطبيعة من هطول المطر وهم تحته منتشين بشرب الخمر، فالسحاب الذي قد حجب شمس الضحى، فهو يبكي فقده، جاعلاً من البرق الشامت والرعد الصارخ في إثره، وكل ما حول الشاعر هو صامت مبهوت لهذا الفقد، فالروض وما فيه من النواوير قد نظرت نحو السماء باحثةً عن الشمس وهي في منظرها هذا مبهوتة حائرة، وفي مثل هذا الجو الذي رسمه الشاعر ضمن إطار الحيرة والحزن والسكون يحاول أن يصل إلى غرضه ألا وهو شرب الخمر واللهو ونسيان الحزن؛ لأنّ كل شيء له نهاية، والعمر ينقضي وساعات الفرح كذلك، فالشاعر كوّن ضمن إطار الطبيعة وجماله قيمة جديدة من خلال جعلها في موقف حزن مع أنها تكون في حالة فرح حين هطول المطر لأنّ في هذا الهطول حياة لكل شيء.

وأما الشاعر الشريف الطليق فيستمد من عناصر الطبيعة قيمتها الجمالية مكونًا خياله وصورته الشعرية في وصفه للجمال المتكون في مجلس خمر، يقول:

رُبَّ كـأسٍ قـد كَسَـتْ جُـنْحَ الـدُّجَى ... ثـوبَ نـورٍ مـن سَـناها أشـرقا
بـتُّ أَسـقيها رشًـا فـي طَرْفِـهِ ... سَـنَةَ تُـورثُ عينـي أَرَقـا
خَفِيَـتْ للعـينِ حتـى خلتُهـا ... تَتّقـي مِـن لحظـهِ مـا يُتَّقَـى
أشـرقتْ فـي ناصـعٍ مـن كفِّـهِ ... كشـعاعِ الشـمسِ لاقـى الفلَقـا
فكـأنَّ الكـأسَ فـي أنمُلِـهِ ... صُـفرةُ النـرجسِ تَعلـو الورقـا

(١) م. ن: ٣/٤٨٥.

أصبحتْ شمسًا وفُوهُ مغرِبًا ... ويدُ الساقي المحيِّي مَشرقا
فإذا ما غربتْ في فَمِهِ ... تركتْ في الخدِّ منه شَفَقا[1]

فالكأس قد كَسَتْ ظلام الدجى ثوب نور من ضوئها، وإنّ جمال عينيها وفتورهما هو من يسقيه ليؤرقه. وهذه الخمرة النورية هي روحانية فلا تكاد تُرى، فهي خفيت مع أنها ظاهرة، وهو يجعل من يد الساقي تتشرف من أثر ما يحمل (الخمر). وهذه الخمرة أو (الشمس) تغرب في الفم بعد أن تطلع من المشرق (يد الساقي). فالقيمة الجمالية تكمن عنده في هذا التداخل والتمازج بين نور المشرق (الشمس) والنور المنبعث من الخمرة، وكلاهما قد كوّن ضمن مفهوم الساقي الجميل عنصر الإشراق والانبعاث الجمالي، ثم نرى الشاعر يعود ويقدم ضمن هذه القصيدة لوحة أخرى يرسم فيها القيمة الجمالية لعناصر الطبيعة المحيطة بالشاعر في أثناء شربه ومجلس خمره، يقول:

وَغمامٍ هَطِلٍ شؤبوبه ... نادمَ الروضَ فَغَنّى وَسَقى
خلعَ البرقُ عَلى أَرجائِهِ ... ثوبَ وَشيٍ منه لَمّا أَبرقا
فَكَأَنَّ الأَرضَ منه مُطبَقٌ ... وَكَأَنَّ الهُضبَ جانٍ أَطبقا
وَكَأَنَّ العارضَ الجونَ به ... أَدهَمٌ خلّى عليه بَلقا
وَكَأَنَّ الريحَ إِذ هَبَّت له ... طيرت في الجَوِّ منه عَقعَقا
في لَيالٍ ضَلَّ ساري نجمها ... حائِرٍ لا يَستَبين الطُرقا
أَوقَدَ البَرقُ لَها مصباحه ... فانثَنى جُنحُ دُجاها مُشرِقا
وَشدا الرَّعدُ حَنيناً فجرتْ ... أَكؤس المزن عليه غدَقا
فانتَشى شُربًا وَأَضحى مائِلاً ... مثلَ نشوانٍ وَقَد خَرَّ لقى
وَغدت تَحنو له الشَّمسُ وَقَد ... أَلحفتهُ مِنْ سناها نُمرُقا[2]

إنّ الشاعر أعطى صورة متكاملة وموسعة للجو العام الذي عليه المجلس مع تركيزه على فعل سقي الغمام للروض التي استمدها من فعل الخمرة في ندماء الكأس، وقد أمسى النجم حائرًا لا يتبين طريقه مما دعا البرق إلى أن يشعل لها مصابيحه، كي يحيل ظلامها الداجي ضياءً، وكان دور الرعد هو الشدو والغناء مما أجرى أكؤس المزن غزيرة على الأرض فانتشى الروض. لكن الشمس حين أشرقت ورأت ما أصاب الغصون

(١) مع شعراء الأندلس والمتنبي: ٧٣.
(٢) مع شعراء الأندلس والمتنبي: ٧٣-٧٤. الشؤبوب: الدفعة من المطر. ينظر: لسان العرب: مادة: (شأب).

والأزهار من تكسُّر وتناثر بسبب الريح والمطر المنهمر ليلاً عطفت على الروض وأشفقت وعالجته بسنا ضوئها ودفئها، مما أعاد إليها الحياة والانتعاش، فهذه اللوحة الجميلة التي قدمها الشاعر قد ضمت ألوانًا ذات وجوه عدة متنوعة المظاهر في تآلف فني بديع لا يتأتى إلا لشاعر عرف القيمة الجمالية للطبيعة ونشوة الخمرة وسحرها التي تُشرب وتُراق في ظلال تلك القيمة الجمالية الخالدة.

ولم تكن مجالس الشرب في الأندلس مجرد اجتماعات للشراب فقط، بل كانت منتديات تجري فيها «حلقات شعرية أدبية، وكانت توضع أمام الندماء مناضد صغيرة خفيفة الحمل، توضع عليها أطباق حافلة باللحم... وكان الساقي المنسرح القوام يمر بين السُّمار يصب لهم في الأكواب نبيذًا أبيض من أباريق بلورية... وكان الحبب الطافي على وجه الكؤوس يلهم الشعراء أخيلة وتشبيهات بارعة. وكان المجلس ينقضي بين تقارض الشعر وارتجاله... وتتوزع أحاسيس السمار بين زهر الأحلام وشطحات السُّكْر ومشاعر الهوى»(١).

وهذه المجالس ربما كانت السبب في نشوء المقطوعات القصيرة؛ لأنّ الجو السائد في هذه المجالس هو الارتجال والبديهة السريعة التي تتطلب القِصَر والسرعة في القول.

ومجالس الخمرة تُعقد في أحضان الطبيعة بين مروجها وتحت ظلال أشجارها أو على ضفاف أنهارها، مما جعل ألفاظ الطبيعة والخمرة تتمازج وتتلازم في بناء بعض النصوص، وهذا كوّن قيمة جمالية موحدة لهما. وجمال الطبيعة كان محفزًا ومحركًا لتعاطي الخمر، والخمرة كانت المحفز لقول الشعر الممزوج بجمال هذه الطبيعة التي حركت مشاعره وزادت من نشوته. وهذا التداخل والاتصال بينهما قد جعل من عناصر الطبيعة مكملة لمجلس الشرب وملازمة لاستكمال دواعي السرور والطرب، وكأن جمال المنظر وسحره وشدو الطير فوق الأغصان هي التي تدعوهم لمنادمة الكأس وتكوين القيمة الجمالية للطبيعة الأندلسية من خلال شعرهم.

ولابن دراج قصيدة بدأها بمزج عناصر الطبيعة من زهرة السوسن والروض مع الخمر، يقول:

جَهِّزْ لَنَا فِي الأرض غزوةَ مُحْتَسِبْ ... وانْدُبْ إليها من يُساعدُ وانْتَدِبْ

(١) الشعر الأندلسي بحث في تطوره وخصائصه: ٩٠-٩١.

واحمِل عَلَى خيلِ الهوى شِيَمَ الصِّبا ... واعقِد لجيشِ اللّهو ألوِيَةَ الطَّرَبْ
واهتِفْ بأجنادِ السرور وقُدْ بِهَا ... نحوَ الرياضِ وأنت أكرمُ مَنْ رَكِبْ
جيشًا تَكون طبولُهُ عِيْدَانَهُ ... وقرونُهُ النَّاياتِ تُسْعِدُها القَصَبْ
واهزُزْ رِماحًا من تباشيرِ المُنى ... واسلُلْ سيوفًا من مُعَتَّقَةِ العِنَبْ
وانصِبْ مجانيقًا من النَّيَمِ الَّتِي ... أَحجارُهُنَّ من الرَّواطِمِ وَالنَّخَبْ
لمعاقلٍ من سَوسَنٍ قَدْ شَيَّدَتْ ... أَيدي الربيع بِنَاءها فَوْقَ القُضُبْ[1]

فخيال الشاعر قد نقل جمال الطبيعة ومجلس الشراب إلى ساحات القتال، فقد استعمل لها ألفاظ التجهيز لخوض المعارك وكأنه سيخوض غمار معركة حقيقية، فهو يطلب تجهيز الأرض للغزو مستنفرًا إليها من يساعده، حاملاً على خيل العشق ألوية الأُنس والطرب التي تُرى من بعيد، لكن جيشه يختلف عن باقي الجيوش لأنّ طبول المعركة من العود والناي، أما رماحه وسيوفه فقد تكونت من معتقة العنب كناية عن الخمرة الأصيلة المحكمة، والشاعر في تكوين هذه الصورة يحاول التعبير عن فعل الخمرة في النفوس، وهو قد مالَ إلى التعليل وصوّر الصورة من مظاهرها كافة وبأدق أجزائها كي يصل بالمتلقي إلى تكوين القيمة الجمالية لهذا المجلس.

ولانسجام الخمرة مع الطبيعة قيمة جمالية متكونة ضمن إطار المجلس، فهم اتخذوهما وسيلة متعة وجمال، فأبو بكر بن القوطية ينظر إلى منظر الأزهار في مجلس شرب فكان حافزًا له في وصفه في قوله:

وثلاثةٍ لمّا اجتمعن بمجلسٍ ... نبَّهن منّي هِمّةً لم تَنعُسِ
ودعونَ حيَّ على الصبوحِ فشُقتني ... بِدُعائهنّ إلى لقاءِ الأكؤسِ
وردٌ كمثلِ دمِ الوَريدِ وسوسنٌ ... غضٌّ بِسوسِيّ الغلائلِ مكتَسِ
ويَزينُهُ نيلَوفرٌ أوراقُه ... وَرِقٌ جرى من فوقِ أخضرَ أملسِ
فإذا سرَت أنفاسُها لك أبرأت ... بلطيفِ ريّاها غليلَ الأنفُسِ
الوردُ والسوسانُ والنيلوفرُ الـ ... أرِجُ المشمّ محركي ومُوَسوسِي
فاقت بحسن رُوائها وأريجها ... فيها من النُوّار أعمُرُ مَجلسي[2]

(١) ديوان ابن دراج: ٣٥-٣٦. النيم: الفرو، وقيل: الفرو القصير إلى الصدر. أو هو شجر له شوك. ينظر: لسان العرب: مادة (نيم). الرواطم: أي أوحله في أمر لا يخرج منه. ينظر: لسان العرب: مادة (رطم). النخَب: الجُبن وضعف القلب. ينظر: لسان العرب: مادة (نخب)، القُضُب: القطع، أو هو شجر سُهلي ينبت في مجامع الشجر. ينظر: لسان العرب: مادة (قضب).
(٢) شعر أبي بكر بن القوطية (بحث): ١٠٢.

إنّ جمال هذه الورود وحيويتها أمدت الشاعر بطاقة ونشوة دعته إلى تعاطي الخمرة وطلبها، فقد اتخذ من الدعوة للشرب مدخلاً لوصف هذا المنظر المتكون من (ورد وسوسن ونيلوفر)، وهذا المجلس هو من وحي خياله، إذ كان همه في إعطاء القيمة الجمالية لهذه الورود التي سحرته وأبعدت عنه النوم، فهي دعته للشرب صباحًا، لذا نراه يتشوق للشرب بين هذه الأزهار التي تتفتح في هذا الوقت، والخمر يزيد من نشوته التي تكونت من أثر جمال هذه الورود وعطرها، فتسكره وتسحره كما سحرته وأسكرته مناظر الرياض بوردها وسوسنها ونيلوفرها الجميل.

ويقول المعتمد بن عباد:

وَلَقَد شَربتُ الراحَ يَسطَعُ نُورُها ... وَاللَّيلُ قَد مَدَّ الظَّلامَ رِداءَ
حَتّى تَبدّى البَدرُ في جَوزائِهِ ... مَلِكاً تَناهى بَهجَةً وَبَهاءَ
لَمّا أَرادَ تَنَزُّهاً في غَربِهِ ... جَعَلَ المظَلَّةَ فَوقَهُ الجَوزاءَ
وَتَناهَضَت زُهرُ النُجومِ يَحُفُّهُ ... لألاؤها فاستَكمَلَ الآلاءَ
وَتَرى الكَواكِبَ كالمَواكِبِ حَولَهُ ... رُفِعَت ثُرَيّاها عَلَيهِ لِواءَ
وَحَكَيتُهُ في الأَرضِ بَينَ مَواكِبٍ ... وَكَواعِبٍ جَمَعَت سَنًا وَسَناءَ
إِن نَشَّرت تِلكَ الدُّروع حَنادِساً ... مَلأت لَنا هَذي الكُؤوسَ ضِياءَ
وَإِذا تَغَنَّت هَذِهِ في مزهَرٍ ... لَم تَألُ تِلكَ عَلى الثَّريك غِناءَ[1]

إنّ الشاعر يقدم صورة جميلة للخمرة ومجلس شربها في إطار الطبيعة، متخذًا من شعوره بالترف ــ بوصفه ملكًا ــ مدخلاً له، فكل ما حوله من تألق ونشوة، وهو متوسط في ندمائه كالبدر جمالاً وتألقًا في السماء.

ومن الطبيعي أن يقضي زملاء الشراب الليل كله في روضة زاهرة، حتى إذا صرعتهم الخمرة باتوا حيث هم، وفي صباحهم كان لا بدَّ أن يغتنموا الفرصة ويصفوا اللحظة الجمالية التي هم عليها، فابن بسام يورد قصة لأبناء القبطرنة الثلاثة (أبي محمد، وأبي بكر، وأبي الحسن)[2] الذين باتوا على الشراب بحديقة مزهرة، فهم «تتجافى جنوبهم

(١) ديوان المعتمد بن عباد: ٢٨. حنادس: أي الظلمة. ينظر: لسان العرب: مادة (حندس).
(٢) الوزراء بنو القبطرنة من أهل بطليوس، وهم كتّاب وشعراء، وهؤلاء الإخوة الثلاثة هم (أبو محمد طلحة وأبو بكر عبد العزيز وأبو الحسن محمد)، أخذوا العلم ورووه كابرًا عن كابر، وقد كتبوا للمتوكل بن الأفطس وابن تاشفين. ينظر: القلائد: ٤٢٩/٢. ينظر: الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة: ق٥٦٤/٤/٢، والمطرب: ١٨٦، والمغرب في حلى المغرب: ٣٦٧/١.

عن المضاجع ويتعاطون أدبًا كالراح ممزوجة بماء الوقائع»[1]، فهبَّ أبو محمد من نومه وخاطب شقيقيه بقوله:

يا شقيقي وفي الصباح بوجه ... ستر الليلَ نورُهُ وبهاؤُهْ
فاصطبحْ واغتنمْ مسرةَ يومٍ ... لستَ تدري بما يجيء مساؤُهْ[2]

فهو يطلب أن يغتنم فرصة الصباح بسروره الذي هو امتداد لسرور الخمر ونشوتها، فهم في مسرة متصلة حتى يأتي المساء الذي لا يُعلم بما يجيء به من أحداث وأمور، فقيمة الشيء جماليًّا تكمن في آنيتِهِ ومعرفته الحاضرة، مع أنّ المستقبل فيه جمالٌ أكبر؛ لأنّ الغموض يكتنفه فلا يعلم أحد من الغيب شيئًا.

ثم استيقظ أبو بكر فقال:

يا أخي قُمْ تَرَ النسيمَ عليلا ... باكرَ الروضِ والمدامِ شُمولا
لا تَنَمْ واغتنِمْ مسرّةَ يومٍ ... إنّ تحتَ التُرابِ نومًا طويلا[3]

هنا دعوة إلى اغتنام فرصة اليوم الجميل في رحاب الطبيعة بالتمتع بالشراب، إذ لا ينبغي ـ حسب رأيه ـ أن يقضي المرء مثل هذه اللحظات الجميلة في إطار الطبيعة نائمًا، معللاً أنهم سينامون طويلاً تحت التراب بعيدين عن مثل هذه النشوة والجمال، ثم نرى الثالث وهو أبو الحسن الذي يقول عنه ابن بسام بأنه «أذكى ذهنًا وأوقده»[4]، يقول:

يا صاحبيَّ ذَرَا لومي ومعتبتي ... ولنصطبحْ خمرةً من خيرِ ما ذَخَرُوا
وبادِرا غفلةَ الأيامِ واغتَنِما ... فاليومَ خمرٌ ويبدو في غدٍ خبرُ[5]

فهو يدعو مثل أخويه إلى اغتنام الفرصة وترك الغفلة عن الشرب والاستمتاع بجمال ما حولهم من رياضٍ وزهر، فنشوة الخمرة هي التي تسعفهم من كل خطب.

إنّ الشاعر الأندلسي حينما يكون أمام قيمة جمالية لهذه الطبيعة التي وهبها الله سبحانه وتعالى، يحاول أن يغتنم أية فرصة وأية لحظة تمرّ عليه، فهو يريد الاستمرار والتجديد في بث الروح والنشوة في قلبه ونفسه، فتراه يطلب ذلك في شرب الخمرة لكي

(١) الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة: ق٢/٤/٥٨٣.
(٢) م. ن: ق٢/٤/٥٨٣.
(٣) م. ن: ق٢/٤/٥٨٣.
(٤) م. ن: ق٢/٤/٥٨٣.
(٥) م. ن: ق٢/٤/٥٨٣.

يصل إلى لحظة التأمل والتمازج مع مكونات الطبيعة الجمالية، فنفسه تحزن لمغيب الشمس، وروحه متعلقة بتلك الثمار المعلقة على الأغصان، وعينه تنظر بنظر الأزهار والورود... هو الانسجام مع الطبيعة وجمالها ومع نشوة الخمرة التي يشرب في ظلالها وبين ربوعها.

ويأتي أبو عمر أحمد بن فرج الجياني ليمزج بين جمال زهرة السوسن وبقايا الخمرة التي تكون في الكأس. وأظنّ أنّ التقاط هذه الجمالية للصورة والطبيعة قد يكون مهمًّا لدراستنا، وبديهة لشاعرنا فلنستمع لذلك الوصف في قوله:

بعثْـــت بسوســـنِ نَضـــرِ ... يـــنمُّ كجونـــةِ العطـــرِ
كـــأكؤسِ فضّـــةٍ فيهـــا ... بقايـــا شـــهلةِ الخمـــرِ
أو الوجنـــات منـــك دَنَـــتْ ... إلـــى وجنـــاتي الصـــفرِ(١)

فنضارة السوسن وطيبه كبقايا حمرة الخمرة في كأس فضة، فهي في بياضها وشكلها الجميل كأنها كأس خمر، وفي توسط الحمرة هو كتوسط ما تبقى من الخمرة داخل الكأس وهو دليل ترف وولع بجمال الطبيعة وشرب الخمرة، فكلاهما قد كوّنا شخصية الأندلسي المتأثر بقيم الجمال المبثوث حوله في الطبيعة وشرب الخمرة.

والشاعر ابن عمار يُهدي لأصحابه تفاحة وقد كُتب مع إهدائه هذه الأبيات، يقول:

خـذها كمـا سـفرت إليـكَ خـدودُ ... أو أرجسـتْ فـي راحتيـكَ نهـودُ
حـذرًا مـن التفـاح نثـرًا بينهـا ... ولهًـا بأغصـان الجنـانِ عقـودُ
وشـفعْتُ بالأجـاص قصـدًا إنّـه ... شـكلُ الجمـال وحـده المَحـدودُ
عـذرًا إليـك فإنّمـا هـي أوجـهٌ ... بـيضٌ تقابلُهـا عيـونٌ سـودُ(٢)

إنّ الشاعر حينما أرسل (التفاح والأجاص) أراد أن يُعرَف سر تخيره لهذين النوعين من الفواكه، وهو طلب كمال المتعة للشاربين. وقد أضاف إليهما من خياله ما يجعلهما شبيهين بأجمل ما في جسد الأنثى من مفاتن، ثم نراه يعود في بيتين آخرين ويورد المعنى نفسه قائلاً:

---

(١) أحمد بن فرج الجياني (بحث): ٢٢٣. جونة: الأسود المشرب حمرة. وقيل: هو النبات الذي يضرب إلى السواد من شدة خضرته. ينظر: لسان العرب: مادة (جون). شهلة: هو أن يشوب سوادها زرقة. ينظر: لسان العرب: مادة (شهل).
(٢) محمد بن عمار الأندلسي: ٢٦٣.

خـــذوها مثلمـــا اســـتهديتموها عروسًـــا لا تُـــزَفُّ إلـــى اللئـــام
ودونكـــم بهـــا ثـــديي فتـــاةٍ أضـــفت إليهمـــا خـــدَّي غـــلامِ[1]

فهو يعود ويهدي خمرًا معها (تفاحتان ورمانتان) زيادة في طلب المتعة لمن بُعث إليه، مشبهًا التفاح بالخدود والرمان بالنهود، فهو مزج لجمال الفاكهة مع مفاتن المرأة، وهذا مما يزيد من قيمة ونشوة الخمرة عند الشاربين لها، فجمال الطبيعة مع سحر وفتنة المرأة أضافا للشارب قيمةً وجمالاً وزيادة في النشوة والسرور والبهجة.

مما تقدم وجدنا أنّ بواعث عدة ساعدت على إقبال الشعراء الأندلسيين على القول في الخمرة، منها: الترف الشديد الذي جعل الفرد يسير في طريق إشباع الشهوات حد الإسراف، وكذلك طبيعة الحياة الحضرية التي من شأنها أن تخلق أجواءً تساعد على الانسلاخ عن القيم والعادات والمثل الداعية إلى المحافظة على الكيان الإنساني ضمن إطاره الأخلاقي والديني.

وأصبح هذا الشعر ذا دلالة أكبر على الحياة الاجتماعية في الأندلس من خلال اعتمادها على الوصف الفني أكثر من اعتمادها على البُعد الفكري والعمق الشعوري، لذا كان شعر الطبيعة الممزوج بالخمرة أقل فكرًا وعمقًا من مزج الطبيعة بالعاطفة الإنسانية (الحب). فالشعراء يطوفون مع جمال الطبيعة وأثرها في الشاربين واصفين القيم الجمالية الخاصة بشرب الخمرة ومكانها وزمانها.

فالخمرة كانت عند شاربيها قيمة جمالية مهمة؛ لأنّ فيها راحة نفسية لا ينالها إلا مَن جرّب هذا الشرب وذاق نشوتها. ومن هنا لم يكن شرب الخمر والتمتع بلذتها مظهرًا من مظاهر الانحطاط أو التفسخ الخلقي في الأندلس، بل كان في أغلبه في حب اللهو ومعاقرة الخمرة، فصار جزءًا من أخلاق أمرائهم وعامتهم، وهم في هذا يحاولون النسيان وترك الهموم، مكونين شخصية الأندلسي التي اتسمت بالمرح والبهجة في أوائل عصورها التي اتسمت باللهو والدعابة وكثرة الإنفاق على هذه الأمور حتى أصبحت سببًا من أسباب سقوطها فيما بعد.

ومن أهم القيم الجمالية التي وجدناها في فلسفة الأندلسيين في الشرب كانت دنيوية بحتة، اعتقادًا منهم أنّ الحياة قصيرة، لذا كثرت دعوتهم فيها إلى استثمار كل لحظة من

(١) م. ن: ٢٦٤.

السرور، والابتعاد عن الهموم، لذا لم يكونوا يتحرجون من شربها وملازمة مجلسها فمزجوها بجمال الطبيعة وصوروها في كل شيء.

ووقوف الشاعر الأندلسي أمام الطبيعة وتأمله في قيمتها الجمالية جعله يحس بنشوة وسرور، فالرياض والأزهار والأنهار... تدعوه لسعادة وفرح، لكنه أراد المزيد فشرب وانتشى بخمرة مأخوذة من رحيق تلك الطبيعة. فكوّن معها جماله وتوحده في طبيعةٍ تدعو كلَّ مَن نظر إليها إلى طلب المزيد ومواصلة الطرب واللهو، فالطبيعة حية متجددة ومستمرة في عطائها، وكذلك الخمرة مهما كانت قديمة فهي متجددة في العطاء والحياة عند شاربيها.

فهذه القيم الجمالية التي تجمع بين الطبيعة والخمرة تدل على فكر الشاعر الأندلسي، وشدة تعايشه مع هذين المظهرين. فالقيم الجمالية تبدو فيهما كبيرة ومؤثرة في المتلقي لأنّ الشاعر شاهدهما وعاشهما وعرف أسرارهما ومؤيدها في النفس من مشاعر ثم في الألفاظ والكلمات التي تخرج من تلك المشاعر.